رسالة البرنس لخنوفسكى

سفارتي في لندن

عن سنة ١٩١٢-١٩١٤

بقلم البرنس لخنوفسكى

ولها مقدمة بقلم الاستاذ جلبرت مري

(طبعت في مطبعة وادي النيل)

رسالة البرنس لخنوفسكي

سفارتي في لندن

عن سنة ١٩١٢-١٩١٤



بقلم البرنس لخنوفسكي

ولها مقدمة بقلم الاستاذ جلبرت مري

(طبعت في مطبعة وادي النيل)

من هو المؤلف

ان مؤلف هـذه الرسالة — أو المذكرات — البرنس كرل مكس لخنوفسكي سبط بيت من أعيان الجرمان له أملاك فى سيليزيا الالمانية وسيليزيا النمسوية وهو عضو بحكم الوراثة فى مجلس الاعيان البروسي وكان والده قائد فرسان فى الجيش البروسى وكان نائبا فى مجلس الرخستاغ هدة سنوات من نواب الحزب المحافظ الحر

وانتظم البرنس لخنوفسكى الحالي فى الجيش البروسى فرقي فيه الى رتبة ماجور ثم ترك الخدمة العسكرية وانتظم فى الخدمة السياسية الاجنبية فالحق سنة ١٨٨٥ بسفارة ألمانيا فى لندن ثم صار مستشاراً لسفارة المانيـا فى فينا وعين من سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩٠٤ فى وزارة الخارجية الالمانية ومنح لقب معتمد مفوض

وفى سنة ١٩٠٤ اعتزل المناصب وأقام فى املاكه فى سيليزيا ثمانية أعوام فعاش عيشة أعيـان الريف الالمان وكان يقضي معظم وقته فى المطالعة والدرس وينشيء المقالات السياسية. وقد قص حكاية تعيينه سفيراً لالمانيا فى لندن بعد وفاة البارون مرشال فون بيبرشتين

وخلاصة الحكاية ان البارون مرشال الذى كان وزيراً للخارجية الالمانيـة في وزارة الكونت كبريفي وبعض وزارة البرنس هوهنلوهي أصاب نجاحاً عظيما وهو سـفير فى الاستانة وفى منصبه الاخر أي رئيس المندوبين الالمان فى مؤتمر الهاي الثاني سنة ١٩٠٧ فكان « خير جواد فى اصطبل ألمانيا السياسى » كما قال بسمرك. فلما قلد منصب السفارة فى لندن كان الالمان ينتظرون منه أموراً كثيرة ولكنه مات بعد تعيينه باشهر

ان رفعة مقام البرنس لخنوفسكى وجاهه العريض ولطف معاشرته وحسن ضيافته في دار السفارة الالمانية فى كرلتن هوس تراس (لندن) كل هذا رفع قدره فى الهيئة الاجتماعية الانكليزية فسهل عليه اجراء المفاوضة بين انكلترا وألمانيا وأزال جانباً كبيراً من الجفاء الذي قام بين البلادين أيام كان البرنس بيلوف وزيراً لالمانيا

أما رسالته المنشورة في ما يلي فوصف لسفارته فى لندن . وقد اقام البرنس لخنوفسكي

بعد عودته الى المانيا فى الريف معتزلا ولكنه كان يراسل الصحف بعض الاحيـان
وقد حبر رسالته هذه فى شهر اغسطس سنة ١٩١٦ ولم يكن ينوى نشرها بل اكتفى
بتوزيع نسخ منها على بضعة من اصدقائه ليقرأوها سراً وكان الناس يعلمون بوجودهـا
ولكن لم ينشر منها شيء على الملاحق شهر مارس. فان جريدة بوليتيكن الاسوجية نشرت
مقتطفات منها ثم نشرت صحف لندن مقتطفات اطول من التي نشرتها الجريدة الاسوجية

مقدمة

بقلم الاستاذ جلبرت مري

لم ير العالم فى تاريخه من نتائج الكذب المنظم وتأثيره فى افساد الضمائر ما رأى عند نشوب هذه الحرب فقد حملت ألمانيا كلها ما عدا دوائر الحكومة فيها على الاعتقاد بان الحرب كانت غدراً بالمانيا ونتيجة مكيدة كادتها فى الخفاء « فرنسا المتعطشة الى الانتقام وروسيا المتوحشة وانكلترا الحسود » وقصدت بها الايقاع بالمانيا البريئة الطاهرة الذيل والمحبة السلام. وان المحور الذى كانت هذه المكايد تدور عليـه هو جراي ذو الوجهين (وفي الاصل الانكليزى المكيافلي) فانه قضى السنين الطوال وهو يفتل الحبال و يمدها حول ألمانيا ليطوقها بها و يخنقها حتى اذا حانت الساعة ضربها الضربة القاتلة من وراء

وتنافس الامبراطور والامراء والوزراء والمطارنة والقسوس والمؤرخون واللاهوتيون فى تزوير البينات على صحة هذه التهمة وابراز الادلة الرسمية؛ وكان بعضهم يفعل ذلك وهو عالم بان ما يقول كذب والبعض الاخر يفعله عن حسن نية . أما الشعب الالماني الذى ربوه بتعاليمهم على بغض انكلترا فصدق ما قيل له وكان يبالغ فيه ويغرق . وهذا يعلل التوحش الغريب والفظاعة الفظيعة الذين اظهرهما عامة الالمان فى اوائل الحرب سواء كان للافراد الذين لهم حق بان يعاملوا بالتكريم والاحترام كالسفراء أو هم جديرون بعطف الناس طراً كالجرحي والاسرى. فان عامة الشعب الالمانى لم يشأ ان يرحم قوماً ارتكبوا بحسب زعمه بشرها هذه الجريمة الفظيعة التى عمت العالم

أما اليوم فقد قامت بينة لو أذيعت فى غير أيام الحرب لاقنعت كل أمة حتى الامة

الالمانية بان القاعدة التي بنى الالمان عليها اعتقادهم المتقدم كانت أساساً واهياً من الاباطيل والاكاذيب الملفقة عمداً وان الامبراطور ووزراءه هم الذين دبروا الحرب وان انكلترا — ولاسيما السر ادوارد جراي — هي التي جاهدت أعظم جهاد للمحافظة على السلام

وهذه البينة هي شهادة السفير الالماني في لندن من سنة ١٩١٢ الى سنة ١٩١٤. والذي قاله البرنس لخنوفسكي فيها أيدته اقوال الهر ياهو الذي كان وزيراً لخارجية ألمانيا عند وقوع الحرب وزاده تأكيداً مانشر أخيراً في مذكرة الهر مولون الذي كان عضواً في مجلس الادارة لمصانع كروب في اسن . فهل في الدنيا بينات أعظم وقعاً من هذه . وهل يصدقها الشعب الالماني . أيصدقون الان ولو قام واحد من الاموات (اشارة الى آية في الانجيل)

لانستطيع الان الانباء بجواب هذا السؤال ولكن هنالك سؤالا آخر تجب الاجابة عنه قبل ذلك وهو : ما الباعث للحكومة الالمانية على السماح بنشر هذه الرسالة و بيع مذكرة لخنوفسكي في كراس بـ٣٠ فنجاً (١٥ مليما) وماذا طرأ على خطة ألمانيا ونظرها الى المستقبل أيعتقد حزب الحرب الالماني ان الوقت حان لازاحة القناع أم اشتد ساعد خصوم هذا الحزب بعد ماظهر انهم صدقوا سحقاً . أو تلك خطة يراد بها حمل الشعب الالماني السهل القياد على أن يخفف من بغضه لانكلترا

ان ما كتبه البرنس لخنوفسكي يقع موقع الدهشة والاستغراب عند الالمان . أما نحن فلا نرى فيه شيئاً جديداً لانه يؤيد تأييداً حرفياً ومعنوياً كل مانشر في الكتاب البريطاني الازرق وسواه من الكتب ككتاب المستر هدلام المعروف « بتاريخ ١٢ يوماً » وكتاب المستر ارشر الموسوم « ١٣ يوماً » : ثم ان استنتاج البرنس لخنوفسكي يطابق استنتاج الحكومة البريطانية أتم مطابقة . فان الالمان نشطوا النمسا على مهاجمة سربيا وهم عالمون حق العلم بالعواقب التي تعقب ذلك ورفضوا بين ٢٣ يوليو و٣٠ منه جميع أنواع الوساطة واشكالها . ولما ارادت النمسا ان تنسحب وتحجم في ٣٠ يوليو عجلوا فارسلوا بلاغا نهائيا الى روسيا ليمنعوا النمسا من الانسحاب (انظر اقوال البرنس لخنوفسكي التالية في آخر الرسالة) انها لقصة طافحة بالجنايات وعمه البصائر ولكننا كنا نعلمها قبل اليوم

ان وصف البرنس لخنوفسكي لسياسة ألمانيا وانكلترا قبل الحرب عظيم الشان يستغرق

الاهتمام وقد ايد ما نعرفه عن « الابهام المقصود » في سياسة المانيا في المغرب الاقصى ورغبة انكلترا المقررة في التفاهم وسعي المانيا لاجتناب هذا التفاهم : واما ما يزعمه الالمان من حسدنا لهم على نجاحهم في التجارة فقد ثبت ان اشد الرغبة في التفاهم مع المانيا كان في دوائرنا التجارية . واما ما يدعيه الالمان من سعينا « لتطويق المانيا » فقد ظهر اننا جرينا في سياستنا على خطط اللورد سلسبري والمستر تشمبرلن أي ان نسهل لدولة عظيمة وسائط التوسع السلمي المشروع لا ان نعرقل سبلها لئلا تصير هـذه الدولة خطراً اذا ضيق عليها وحصرت في مالها من البلاد

وحسبنا دليلا على صحة ذلك مسألة سكة حديد بغداد ومسألة المستعمرات البرتغالية فقد قبلنا أن لا نعارض المانيا في شراء هذه المستعمرات اذا ارادت البرتغال بيعها وقبلنا أن نعدها قبل عقد صفقة البيع كأنها داخلة في منطقة المصالح الالمانية وقبلنا ايضاً مع اشتراط الاحتفاظ بالحقوق البريطانية الموجودة وبعض الضمانات الاخرى أن تكمل المانيا سكة الحديد من البسفور الى البصرة وان تعترف بان جميع المقاطعات التي تخترقها سكة الحديد وتستمد منها عملها تكون داخلة في منطقة المصالح الالمانية . وكتبت المعاهدتان الخاصتان بهاتين المسألتين ولكنهما لم تمضيا . فما علة ذلك ؟ العـلة هي ان جراي أبى أن يمضي معاهـدة سرية وألح في نشر المعاهدتين . أما الحكومة الالمانية فأبت السماح بنشرهما وحسب لخنوفسكي ان هذا الرفض معارضة له من مناظريه الالمان الذين نقموا منه نجاحه أما نحن فنرى في الرفض خطة ألمانية مقررة وضعت عمداً وبتروٍ فان صانعي الحرب في ألمانيا ما كانوا يريدون اطلاع شعبهم على البراهين التي تثبت حسن نية انكلترا . كان لخنوفسكي صديقاً لانكلترا ولكنه لم يكن من الغلاة بين دعاة السلم ولا كان من الالمان القائلين بوجوب الاكتفاء ببلادهم . ولكنه يميل الى توسع المانيا توسعاً سلمياً بالتفاهم مع انكلترا وفرنسا سواء كان هذا التوسع على سطح البحار أو في المستعمرات وكان يرمي الى التوسع والارتقاء فيه على المنوال البريطاني . وكان يمقت « سياسة المحالفة الثلاثية » التي قضت بشد ازر النمسا في كل خلاف يقع لها وتأييد تركيا على دول البلقان ودس الدسائس لروسيا ويستهجن خطة الحض على التنافس بين دول اوروبا مع الرجوع الى

الحرب على كل حال . ولو جارته الحكومة الالمانية على سياسته لاجتنبت الحرب وخلصت أوربا من رزاياها

ان من ينعم النظر فى رسالة البرنس لخنوفسكي يجد فيها عبارة أو عبارتين تدلان على انه ألماني مع كل ما اتصف به من سعة الصدر وحرية الفكر فقد سلم مثلا بصحة مارواه أحد « الخفية » الالمان كذباً وهو ان جراي ابرم معاهدة سرية مع فرنسا . وقال ان النمسا داشترت جريدة الستندرد» ومع غرابة هذا القول فقد أورده كأنه أمر واقع طبيعي

لم يبق ريب فى ان الحكومة الالمانية تعمدت خدع لخنوفسكي والمرجح أن الغرض من تقليده سفارة لندن كان خدعنا . وعند برناردي ان هذه الامور جائزة وهي في قانون الايمان الالماني . أما لخنوفسكي فكان صادقا وسياسياً بارعا وان المرء ليسمع رنة الصدق والاخلاص فى قوله وهو يلوم نفسه « لقد أكرهت وانا فى لندن على تأييد سياسة كنت أعلم انها فاسدة فجر على هذا النقمة علي »

واذا كان السر ادوارد جراي قد ضل أو اخطأ فى تيه المشاكل المرعبة الذى كان فيه فانه لم يخطيء ضد الحق . ولا اسول من اخلام النظر بين الراديكاليين الذين حملوا عليه فى بدء الحرب فانه اذا كان فى الدنيا سياسي جاهد لحفظ السلام وتوطيد الصداقة بين الشعوب وتحويل المنافسة المسلحة الى تفاهم ودي دمقراطي فوزير الخارجية الانكليزي العظيم هو ذلك الرجل . لقــد اتهموه بابرام المعاهدات السرية فثبت انه كان يعارض فى ابرام هذه المعاهدات على الدوام . واتهموه بانه كان يطمع بالاملاك فالفيناه في الحرب والسلم اشد معارض في التوسع . وهذه هي الخطة التي وافق عليها زعماء الحزبين الانكليزيين قبل الحرب

وعندي ان السواد الاعظم من الانكليز يوافقني على قولي ان خطة جراي هي خطة الحق والحكمة كما كنا نعتقد جميعاً فى ذلك الزمان أى ان نفهم العالم كله اننا لا ننضم الى من يروم مهاجمة المانيا ولكننا لا نسمح لاحد بمهاجمة فرنسا. واننا نسعى لازالة جميع اسباب الجفاء والخلاف بين انكلترا والمانيا كما أزيلت بين انكلترا وفرنسا و بين انكلترا وروسيا واننا نعمل لتعميم « الاتفاق الودي » تدريجاً حتى يشمل جميع الامم التي تريد دخوله

وانا نقرب بين طائفتي الدول الاوربية. هذه هي السياسة الصحيحة الحكيمة سواء نجحت أو فشلت وستكون السياسة الصحيحة في المستقبل من حيث روحها على الاقل

وليس بين الانكليز من يندم على المجاملة والتكريم اللذين أبديتهما حكومتنا للسفير الالماني الراحل وتعيين قرقول شرف لتحيته « كأنه ملك مسافر » كما قال لخنوفسكي ولا من يندم على الدموع التي ذرفها رئيس وزرائنا لما رأى ان الحرب واقعة لامناص منها أو على قول جراي ان هذه الحرب ستكون « أعظم نكبة في تاريخ العالم » — لا نندم على ذلك ولو استنتج حزب الحرب الالماني ان الباعث على هذا الحزن كان الخوف من الانكسار . اما أنا فقد سرني ان جراي اكد لخنوفسكي في اجتماعهما الاخير انه ينتهز كل فرصة تسنح للتوسط بين المتحاربين واننا « لم نبغ سحق المانيا قط »

ان ذكرى هذه الامور والوقائع حسنة الان في اشد ازمات الحرب فانه كلما صفا ضميرنا القومي اشتدت عزيمتنا على احراز النصر. ان ابطالنا في التخلي عن تقاليد التسامح والثقة بالدول التي رسخت في نفوسنا بطول عهد سلامة بلادنا وامنها من الاعتداء يزيد تصميمنا على الثبات مهما خبأ القدر لنا من المصائب والمكاره الى ان يتاح لنا او لاولادنا العودة الى حياة التسامح ومكارم الاخلاق والثقة بجيراننا . فان كل حياة غير هذه الحياة عديمة القيمة في كيان الشعوب جلبرت مري

رسالة لخنوفسكي

تقليدي منصب السفير

توفي البارون مرشال في سبتمبر سنة ١٩١٢ بعد ما تقلد منصبه في لندن بضعة أشهر وقد كان الباعث على تعيينه في هذه السفارة مراعاة سنه ورغبة مساعده في الاقامة في لندن فكان التعيين احدى الغلطات العديدة التي ارتكبناها في سياستنا . نعم ان البارون مرشال كان رجلا جليلا مهيبا ذائع الصيت ولكنه شاخ وتعب فلم يعد يستطيع تكييف نفسه على حسب مقتضى الحالة في العالم الانجلوسكسوني الذي كان غريبا عليه . وكان موظفا وقانونيا اكثر منه سياسيا اداريا فانه منذ تقلد منصبه اخذ يفرغ قصارى جهده ليقنع الانكليز بان اسطولنا لا

يضر ولا يراد به الضرر فاحدث سعيه هذا عكس الغرض المطلوب طبعا

فلما عرض علي منصب السفارة في شهر اكتوبر (١٩١٢) قابلت الامر بالدهشة والاستغراب فاني كنت قد اعتزلت العمل السياسي واقمت في الريف كاحد اعيانه بعدما قضيت سنين عديدة في مناصب الدولة لان الحكومة لم تجد لي منصبا ملائما فكنت اقضي الوقت بين القنب والقت والخيل والمروج اطالع كثيرا وانشر مقالات سياسية حينا بعد آخر

وظللت عائشا على هذا المنوال ثماني سنوات وانقضت ثلاث عشرة سنة على تركي السفارة الالمانية في فينا وقد خرجت منها برتبة معتمد وكان هذا اخر منصب سياسي حقيقي قلدته وفيه عمل

ولست اعرف من كان العامل في تعييني في سفارة لندن ولكني موقن ان الفضل في ذلك ليس لجلالته (الامبراطور) لاني لم اكن من اخصائه مع انه كان على الدوام يعاملني بالعطف ؛ وكنت اعلم ايضا ان مرشحيه كانوا بالاجمال يلقون معارضة يفوز المعارضون فيها وكان الهر فون كدرلن وزير الخارجية حينئذ يريد أن يعين الهر فون ستوم في لندن فلما عهد الي في المنصب ظهر بمظهر الناقم مني وحاول أن يرهبني بجفائه وشكاسته ؛ واما الهر فون بتمن هلفج وزير الامبراطورية حينئذ فكان يميل الي وقد زارني في غرائز قبل ذلك بقليل فلهذا اعتقد أنهم اتفقوا جميعا على تعييني لأنهم لم يجدوا مرشحا اخر في ذلك الحين. ولولا موت البارون مرشال لما دعيت الى الخروج من عزلتي الطويلة

سياسة المانيا في مسألة المغرب الاقصى

وقد كان زمن تعييني الزمان المناسب لبذل مساع جديدة لتحسين العلاقات مع انكلترا فان سياستنا المبهمة في مسألة المغرب الاقصى أو سياسة الانذار التي جرينا عليها زعزعت ثقة الناس غير مرة بنياتنا السلمية أو انها حملتهم على الاعتقاد باننا لا نعلم تماما ما نريد أو ان غايتنا هي اكراه اوروبا على ان تقف وقفة الحذر المستمر واذلال فرنسا متى منحت الفرصة لنا. قال لي زميل نمسوي اقام مدة طويلة في باريس « كلما أخذ الفرنسيون ينسون الانتقام تذكرونهم به بعنف شديد وغلظة ممقوتة »

و بعد ما أحبطنا المساعي التي سماها المسيو دلكاسه للاتفاق معنا على المغرب الاقصى و بعد ماجاهرنا رسمياقبل ذلك بان ليس لنامصالح سياسية فى تلك البلاد ـ وهذا عمل يطابق تقاليدالسياسة البسمركية ـ عثرنا فجأة على كروجر ثان فى شخص عبد العزيز (سلطان المغرب الاقصى) فوعدناه كاوعدنا البوير من قبله بحماية الامبراطورية الالمانية العظيمة القادرة وتظاهرنا بذلك تظاهرنا للبوير وكانت النتيجة واحدة فى الحالين فان التظاهرتين انتهتا بفشلنا ولم يكن من ذلك مناص الا اذا كنا قد وطنا النفس على اضرام نار الحرب العامة . فهذه النتيجة لم يغيرها مؤتمر الجزيرة ولا سقوط المسيو دلكاسه

ان سلوكنا هو الذي أوقع الحرب بين روسيا واليابان ثم أدى الى التقرب بين انكلترا واليابان: فان كل خلاف كان يتبدد و يتلاشى أمام «الخطر الالماني» لان احتمال وقوع حرب جديدة بين فرنساوألمانيا كان ظاهرا .وحرب كهذه لووقعت لماتيسر لروسيا او انكلترا التنحي عنها كما حدث فى حرب ١٨٧٠

ان عدم نفع المحالفة الثلاثية ظهر فى مؤتمر الجزيرة واما عدم نفع الاتفاقات التى ابرمت في هذا المؤتمر فقد ظهر بعد ذلك بتداعى سلطنة المغرب الاقصى وتضعضعها وهو امر لم يكن في الطاقة منع وقوعه ، غير ان الشعب الالماني اخذ يعتقد ان سياستنا الاجنبية ضعيفة وانها تتقهقر امام سياسة « التطويق » وان العبارات المقعرة كان يعقبها اذعان يشف عن الضعف والجبن

ومما يشهد بالفضل للهر فون كدرلن — الذى بولغ فى وصف مقدرته السياسية فى ماضوى هذا — انه « صفى » ارثنا فى المغرب الاقصى وسلم بالحقائق التي لم يبق سبيل الى تغييرها

واني اترك لغيرى الحكم فى هل كان من الضرورة أن تقلق العالم بحادثة اغدير فقد قوبلت هذه الحادثة بالهتاف والابتهاج فى المانيا ولكنها اقلقت بال انكلترا وزادت ريبها فظلت الحكومة البريطانية ثلاثة اسابيع وهي تنتظر منا بيانا لنياتنا وكانت العاقبة ان خطب المستر لويد جورج خطبته تحذيرا لنا . وقد كان الحصول على ميناء وامـلاك على شاطىء افريقية الغربية متيسرا لنا قبل سقوط دلكاسه ومؤتمر الجزيرة اما بعدهما فان ذلك بات فى حكم المحال

البيان السياسي للسر ادورد جراي

لما وصلت الى لندن فى نوفمبر ١٩١٢ كان هياج الخواطر من جراء مسألة المغرب الاقصى قد خمد لان الاتفاق مع فرنسا تم في برلين قبل ذلك : نعم ان اللورد هلداين فشل في مهمته التى زار برلين لاجلها لاننا طلبنا عهدا بالحياد بدلا من ان نكتفي بمعاهدة تضمن لنا السلامة من هجوم البريطانيين والهجوم من جهة اخرى بمساعدة بريطانيا العظمى ولكن السر ادورد جراي لم يكن قد تخلى عن فكرة التوصل الى الاتفاق معنا فسعي ليكون هذا الاتفاق اولا على الشئون الاستعمارية والمسائل الاقتصادية وكانت المفاوضات دائرة مع فون كلمان مستشار السفارة وهو بارع كفؤ فى الاعمال على تجديد الاتفاق الخاص بالمستعمرات البرتغالية والعراق (سكة حديد بغداد) وكان الغرض المضمر فى هذه المفاوضات تقسيم المستعمرات المذكورة والاناضول الى مناطق نفوذ

فبعد ما سوى الوزير البريطاني جميع وجوه الخلاف مع فرنسا وروسيا اراد ان يبرم معنا اتفاقات كهذه . ولم يكن غرضه عزلنا بل جعلنا شركاء فى شركة موجودة فقد قرر حل وجوه الخلاف بين انكلترا وفرنسا وبين انكلترا وروسيا ورام ان يفرغ قصارى جهده فى ازالة الخلاف بين انكلترا والمانيا واراد ان ينسج شبكة من المعاهدات لو نسجت لادت فى آخر الامر الى الاتفاق على مسألة التسلح البحري المعقدة ولضمنت سلام العالم بعد ماادت سياستنا السابقة الى تأليف جمعية — جمعية دول الاتفاق — التى كانت عبارة عن وسيلة التأمين المشترك من اخطار الحرب

فهذه كانت خطة السر ادوارد جراي وكان يقول : « انني اريد ان اوطد علاقات المودة والتفاهم مع المانيا « التقريب بين طائفتي الدول » من غير ان اتعرض لصداقتنا الموجودة مع فرنسا وروسيا وهي الصداقة التي لا ترمي الى غايات عدائية ولا تقيد انكلترا بعهود مبرمة »

وكان فى انكلترا فى ذلك الحين حزبان كما هي الحالة عندنا — حزب المتفائلين الذين كانوا يعتقدون بامكان التفاهم وحزب المتشائمين اى الذين كانوا يظنون ان الحرب

واقعة لا محالة اما عاجلا واما آجلا ، وكان الحزب الاول يشمل اسكويث وجراي واللورد هلداين ومعظم الوزراء في وزارة الراديكاليين وصحف الاحرار الكبرى واما المتشائمون فكان معظمهم من ساسة المحافظين كالمستر بلفور فقد اظهر لي هذا الامر بتمام الوضوح والجلاء غير مرة وكذلك كبار رجال الجيش كاللورد روبرتس فانه بسط لقومه ضرورة جعل الخدمة العسكرية عامة وصحف نورثكلف والصحافي الانكليزي الشهير المستر جرفن. على انهم في اثناء سفارتي امتنعوا عن حمل الحملات وسلكوا سلوكا وديا سواء في الشخصيات او في السياسة ولكن خطتنا البحرية وسلوكنا في سنة ١٩٠٥ و١٩٠٨ و١٩١١ ولدا فيهم الاقتناع بان الحرب ستقع يوما ما . فاهل انكلترا الان يتهمون الفريق الاول بقصر النظر والبساطة ويقولون ان نبوءة الفريق الثاني صحت تماما

الشرق الادنى وسياسة المحالفة الثلاثية

كان علينا ان نقضي على التقليد القتال القاضي باتباع سياسة المحالفة الثلاثية في الشرق الادنى وان ندرك خطأنا وهو التضامن مع الترك في الجنوب ومع النمسويين والمجر في الشمال لان الاستمرار على هذه السياسة التي شرعنا فيها في مؤتمر برلين والتي جرينا عليها بكل همة ونشاط بعده كان مؤديا الى الخلاف مع روسيا ووقوع حرب عامة لا محالة ولا سيما اذا عدمت البراعة المطلوبة في المقامات العالية : فبدلا من ان نتفق مع روسيا على قاعدة استقلال السلطان الذي لم تكن روسيا نفسها ترغب في اخراجه من الاستانة والاقتصار على الاهتمام بمصالحنا الاقتصادية في الشرق الادنى وتقسيم آسيا الصغرى الى مناطق نفوذ — بدلا من ان نفعل ذلك جعلنا مطمحنا السياسي بسط نفوذنا وسيادتنا على البسفور فاخذ الروس يعتقدون ان باب الطريق المؤدي الى الاستانة والبحر المتوسط هو في برلين. وبدلا من ان نساعد في ترقية دول البلقان — وهي لو حررت لما كانت روسية وقد كان اختبارنا لها باعثا على الرضى التام — انحزنا الى ظلامها الترك والمجر

ان الخطأ الفاحش الذي ارتكبناه بسياستنا الثلاثية وسياستنا في الشرق الادنى اكره روسيا جارتنا وخير اصدقائنا الطبيعيين على ان تلقي نفسها في حضن فرنسا وحضن انكلترا

ونكف عن سياسة التوسع في آسيا.ومما زادهذا الخطأ ظهورا ان المسوغ الوحيد لسياسة المحالفة الثلاثية أى هجوم فرنسا وروسيا علينا ما كان ليقع أو ليدخل في الحساب لو عاملنا روسيا بغير معاملتنا لها

ولا أحتاج الى البحث في قيمة المحالفة مع ايطاليا . أما خذل ايطاليا لنا في الحرب الحاضرة فكان معروفا من قبل فلهذا كانت محالفتنا لها عديمة القيمة . أما النمسا فتفتقر الى مساعدتنا في الحرب وفي السلم وليس لها من تتوكأ عليه سوانا . واعتمادها علينا قائم على اعتبارات سياسية وقومية واقتصادية وهو يزيد على نسبة توثق علاقاتنا مع روسيا فاذا صارت سياسة ألمانيا في السبل الصحيحة وحسنا علاقاتنا مع روسيا فالنمسا والمجر تكونان تابعتين لنا ومعتمدتين علينا حتى ولو لم تعقد محالفة بيننا ولو لم نكافئهما على اعتمادها هذا . أما اذا أدأنا تسيير سياستنا فاننا نصبح معتمدين على النمسا . فلهذه الاعتبارات لا يبقى ثمة باعث للتحالف بيننا

ما كنا مضطرين أن نعبأ برغبة حليفتنا ولم تكن هذه الرغبة ضرورية بل كانت خطرة لانها كانت تؤدي الى النزاع مع روسيا اذا نظرنا الى المسائل الشرقية بعين النمسا

ان توسيع نطاق المحالفة من اتحاد أنشىء على فرض واحد لغاية واحدة معينة وجعل هذه المحالفة شركة عامة غير محدودة ومزج مصالح الفريقين في جميع المناطق — ان ذلك كله كان خير طريقة لوقوع ما أوجدت السياسة الاجنبية لمنعه وهو الحرب . ثم ان هذه السياسة التي قضت بها المحالفة كانت مؤدية الى نفور الشعوب الفتية القوية الناشئة في البلقان وابتعادها عنا بعد ما كانت مستعدة أن تقبل علينا وتفتح أسواقها لنا

تعين علينا أن نحكم في الخلاف بين بيت مالك ودولة وطنية وبين حكم أسرة وحكم دمقراطي فحكمنا كالعادة حكما مغلوطا

قال الملك كرول الروماني لاحد مندوبينا انه حالفنا وهو يحسب أننا نحتفظ بالزعامة ولكن اذا انتقل زمام الزعامة الى النمسا فان انتقاله يغير أساس العلاقة وفي هذه الحالة لا يسعه أن يستمر في المحالفة

وجرى مثل ذلك في صربيا فقد أيدنا فيها سياسة النمسا التي كانت ترمي الى خنق صربيا

خلافا لما تقضى به مصالحنا الاقتصادية

لقد راهنا كل مرة على المسلي (آخر خيل الحلبة) مع ان فشله كان منظورا . وأيدنا كروجر وعبد العزيز (سلطان المغرب الاقصى) وعبد الحميد وولم فيد (أمير ألبانيا) وختمنا أغلاطنا باعظمها وهى « المراهنة على خيل الكونت برختولد »

مؤتمر السفراء

اقترح السر ادوارد جراى بعيد وصولي الى لندن في أواخر سنة ١٩١٢ أن تدور مفاوضات غير رسمية لمنع حرب البلقان من أن تكبر وتصير حربا أوربية بعد ما رفضنا لسوء الحظ أن نوافق عند نشوب حرب البلقان على ما اقترحته فرنسا وهو المجاهرة بان لا مصلحة لدول اوربا فى البلقان. وجاهر الوزير البريطانى من أول الامر بان ليس لانكلترا مصلحة فى ألبانيا وانها لا تنوى ان تخوض غمار حرب لاجل المسألة الالبانية. وأعلن أن غرضه الوحيد التوسط بين طائفتي الدول « كوسيط أمين » لتمهيد العقبات وتذليل الصعاب فلم ينحز الى جانب دول الاتفاق . وكان حسن نيته ونفوذه الكبير فى أثناء المفاوضات التى دامت ثمانية اشهر عاملا كبيرا فى التوصل الى الاتفاق . أما نحن فبدلا من أن نحذو حذو انكلترا وقفنا الموقف الذى أشارت علينا حكومة النمسا بوقوفه . وكان الكونت منسدورف سفير النمسا فى لندن زعيم ساسة دول المحالفة الثلاثية فيها وكنت أنا ثانيا له وعلي أن أويد اقتراحاته . وكان الكونت زوتجيانى البارع الخبير يعمل فى برلين فلم يكن يفتأ يقول عند كل عقدة « لقد وقع ما يضطرنا الى تنفيذ نصوص المحالفة » وحدث مرة انى عارضت استنتاجه هذا فوبخونى توبيخا شديداً لأني اظهرت الكره للنمسا »

وقد انحزنا (فى المؤتمر) فى كل شيء الى النمسا وايطاليا فايدناهما فى مسألة ألبانيا والميناء السربي على بحر الادرياتيك واشقودره وتحديد تخوم ألبانيا اما السر ادوارد جراى فلم يكن يؤيد مطالب فرنسا وروسيا بل كان فى معظم الاحيان يؤيد طائفتنا لكي لا يترك لنا وسيلة نتوصل بها كما توسلنا بمقتل الارشيدوق بعد ذلك فنيسر بمساعدته اقناع الملك نقولا ملك الجبل الاسود بالخروج من اشقودره ولولا ذلك لادت هذه المسألة الى اضرام نار

حرب عامة لان المانيا ما كانت لتحمل حليفتها (النمسا) على التسليم

وأدار السر ادواردجراي المفاوضات بدراية ورزانة وفطنة فاذا تعقدت مسألة وضع نص عبارة لاجل الاتفاق على موضوع الخلاف فيصيب بها كبد الصواب ويقبلها المجتمعون كل مرة وكان الجميع يثقون ثقة متساوية فيه

وصفوة القول اننا خرجنا مرة أخرى فائزين من صراع من الصراعات التي امتازت بها سياستنا فقد اضطرت روسيا أن تذعن لنا في جميع الوجوه لانها عجزت عن انفاذ مطالب سربيا. وأنشئت امارة البانيا كدولة تابعة للنمسا وابعدت سربيا عن البحر فاسفر المؤتمر والحالة هذه عن اذلال آخر لروسيا. أى اننا عارضنا خطط الروس كما فعلنا سنة ١٨٧٨ وسنة ١٩٠٨ من غير أن يكون لالمانيا مصلحة ما في الامر. وقد كان بسمرك بارعا فخفف من خطأ المؤتمر (مؤتمر برلين) بالمعاهدة السرية. أما نحن فواصلنا في لندن السير في الطريق الخطر وسلكناه مرة أخرى في مسألة البوسنه ولم ننكب عنه حتى لما اشرفنا على الهاوية

أما امتعاض الروس في ذلك الحين فقد ظهر في اثنا عقد مؤتمر السفراء بالحملات التي كانت الصحف الروسية تحملها على السفير الروسي في لندن وعلى سياسة روسيا وكانت الدوائر المستاءة تشير الى أن السفير المذكور من سلالة ألمانية وتذكر ما اشتهر عنه من الميل الى ألمانيا وكونه كاثوليكي المذهب وتنوه بقرابته من الكونت منسدورف سفير النمسا ومع . ومع أن الكونت بنكندورف (سفير روسيا) لم يكن رجلا ممتازاً فقد كان متصفاً بصفات عديدة تلزم المشتغل بالسياسة لاجنبية منها الفطنة وآداب الجماعة والخبرة والرقة والادب ومعرفة الناس و بعد النظر في الامور وكان يجتهد لاجتناب معاملة الدولتين الجرمانيتين بالخشونة وقد أيدته انكلترا وفرنسا في ذلك

قلت له مرة بعد ذلك. « اظن أن الروس شديدو الكره لالمانيا » فاجاب قائلا « ولكن في روسيا دوائر قوية كبيرة النفوذ تشايع ألمانيا. على ان الشعب بالاجمال معارض للنمسا »

وغني عن البيان أن تطرفنا في الميل الى النمسا ما كان ليوهن العرى بين دول الاتفاق

مؤتمر البلقان

وكان مؤتمر البلقان يعقد جلساته في تلك الاثناء في لندن أيضا فتيسر لي الاجتماع باقطاب

دول البلقان . وأقول الحق ان المسيو فنزيلوس كان أعظمهم شأناً ولم يكن في ذلك الحين من خصوم الالمان فزارني بضع زيارات وكان ولما يتقلد شارة نشان العقاب الاحمر حتى انه لبسها في دار السفارة الفرنسوية . وأحرز هذا السياسي عطف الناس عليه برقته وكياسته وكان يناوه المسيو دانف رئيس وزارة بلغاريا في ذلك الحين وصديق الكونت برختولد الحميم وموضع ثقته وكان الناظر اليه يرى فيه رجلا نشيطا بعيد الغور . والمرجح انه لم يرتكب حماقة الدخول في حرب البلقان الثانية ويرفض وساطة روسيا الا بتأثير أصدقائه في فينا وبودابست مع انه كثيراً ما كان يهزأ بولائهم

وكان المسيو تاك يونسكو الوزير الروماني يكثر التردد على لندن ويزورني دائما وقد عرفته لما كنت سكرتيراً في وكالة ألمانيا السياسية في بخارست وكان صديقاً لهر كدرلن وكان همه في لندن ان ينال من المسيو دانف امتيازات لرومانيا بمفاوضته. وساعده في ذلك المسيو ميسو معتمد رومانيا البارع في لندن . وقد علم الخاص والعام أن معارضة بلغاريا احبطت هذه المفاوضات فان الكونت برختولد انحاز الى بلغاريا (وكنا نحن معه طبعا) ولوشددنا على المسيو دانف لانلنا رومانيا ماطلبت وجعلناها مدينة لنا ولكن سلوك النمسا نفرها من الدولتين الجرمانيتين في اثناء حرب البلقان الثانية وبعدها

حرب البلقان الثانية

ان انكسار بلغاريا في حرب البلقان الثانيه وانتصار صربيا وغزو رومانيا لبلغاريا ـ كل هذا كان اذلالا للنمسا . والظاهر ان الحكومة النمسوية فكرت بعيد هذا أن تعدل ما جرى بتسيير حملة على صربيا . وهذا مؤيد بما كشفت الحكومة الايطالية النقاب عنه وعندي ان المركيز سان جليانو (وزير خارجية ايطاليا حينئذ) الذى وصف هذه الخطة وصف بارع وقال انها مغامرة خطرة انقذنا من دخول حرب عامة في اوائل صيف سنة ١٩١٣ .

ولا ريب ان الحكومه الروسية وقفت على خطة النمسا لشدة احكام علاقات المودة بين روسيا وايطاليا . ومهما يكن من ذلك فان المسيو سازنوف جاهر في قسطنزا بقوله

ان هجوم النمسا على سربيا يجر روسيا الى محاربتها : قال لي ذلك المسيو تاك يونسكو

وعاد أحد موظفي سفارتي من اجازته في فينا في ربيع ١٩١٤ فروى ان الهر فون تشرشكي السفير الالماني في النمسا قال ان الحرب ستقع قريبا : ولما كانت حكومتي تكتم عني الامور المهمة رأيت ان هذا التشاؤم عار عن الصحة

ولكن يظهر انه منذ ابرمت معاهدة بخارست (الاولى) وطنت النمسا النفس على تعديلها بمساعينا وكانت تنتظر وسيلة ملائمة تتوسل بها . وكان ساسة النمسا يعلمون انهم يستطيعون ان يعتمدوا علينا : يعلمون ذلك لان حكومتنا كثيرا مااتهمتهم بالوهن وقلة الحزم . والحقيقة ان الحكومة الالمانية كانت تسعى «لتعويض شرف النمسا »

ليمان فون سندرس

عدت الى لندن في دسمبر سنة ١٩١٣ بعد اجازة طويلة وكانت مسألة تعيين الجنرال ليمان فون سندرس الالماني في الجيش العثماني قد احدثت ازمة جديدة في علاقاتنا مع روسيا فخاطبني السر ادوارد جراي في الامر و بين لي وهو قلق هياج الخواطر في بتروغراد من جراء ذلك قائلا « لم ار مثل هذا الهياج بين الروس قبل اليوم »

وتلقيت الاوامر من حكومتي بان ارجو من السر ادوارد ان يبذل نفوذه في بتروغراد لضبط مظاهر الهياج فيها ويساعدنا على تسوية الخلاف فلبي هذا الطلب بارتياح وكان لتوسطه نصيب كبير في تمهيد العقبات : وقد استخدمت علاقاتي الحسنة مع السر ادوارد جراي ونفوذه العظيم في روسيا غير مرة في احوال كهذه اي حينما كنا نروم احراز شيء في روسيا لان سفيرنا فيها اثبت انه عاجز في هذه المهام

وفي ايام يوليو ١٩١٤ تلك الايام العصيبة قال لي السر ادوارد جراي : « كنتم كلما اردتم الحصول على شيء في بتروغراد تأتونني طالبين مساعدتي فلما طلبت منكم بذل نفوذكم في فينا خذلتموني »

معاهدة المستعمرات

ان العلاقات الودية الحسنة التي فزت بانشائها مع كبراء الانكليز واقطابهم كالسر ادوارد جراي والمستر اسكويث ومع الجمهور البريطاني في انادي العمومية حسنت العلاقات بين بلادينا تحسينا عظيما . واجتهد السر ادورد جراي بكل اخلاص ليوثق هذا التقرب وقد ظهرت نياته اتم ظهور في مسألتين — معاهدة المستعمرات ومعاهدة سكة حديد بغداد

فانه في سنة ١٨٩٨ امضى الكونت هتزفلد والمستر بلفور اتفـاقا سريا قسمت به المستعمرات البرتغالية الى مناطق نفوذ اقتصادي بيننا وبين انكلترا . ولما كانت الحكومة البرتغالية لا تملك القوة والمال اللازمين لترقية املاكها الواسعة وادارتها كما يجب فكرت في بيعها قبل ذلك واستخدام ثمنها في تخفيف اعبائها المالية فوضع اتفاق بيننا وبين انكلترا لتحديد مصالح الفريقين وكان هذا الاتفاق عظيم القيمة لان البرتغال تعول على انكلترا كل التعويل كما هو معلوم

وكان هذا الاتفاق في الظاهر لصيانة سلامة الدولة البرتغالية واستقلالها : وجاء فيه ان الغرض منه مساعدة البرتغاليين مساعدة مالية واقتصادية فهو اذا لا يعـد خرقا للمحالفة القـديمة المبرمة بين الانكليز والبرتغاليين في القرن الخامس عشر والتي جددت في حكم الملك تشارلس الثاني وكانت تضمن سلامة املاك الدولتين المتعاقدتين

ومع ذلك وبمساعي المركيز صفرال معتمد البرتغال في لندن في ذلك العهد — وقد كان عالما طبعا بالاتفاق بين انكلترا والمانيا — ابرمت معاهدة وندزر بين انكلترا والبرتغال سنة ١٨٩٩ وهي تؤيد الاتفاقات القديمة التي ظلت نافذة قبلها

وكان الغرض من المفاوضات التي دارت بيننا وبين انكلترا قبل وصولي الى لندن تعديل اتفاقنا المتقدم المبرم سنة ١٨٩٨ وتحسينه . فقد ظهر انه غير مرض من عدة وجوه في ما يتعلق بتحديد التخوم فتمكنت بتساهل الحكومة البريطانية من وضع اتفاق جديد يطابق رغبتنا ومصلحتنا . وقد اظهرت الحكومة البريطانية اعظم اهتمام بهما واراد السر ادوارد جراي ان يظهر حسن نيته نحونا ولكنه اراد ايضا ان يساعد في ترقية مستعمراتنا

جملة لان انكلترا رجت ان نحول زيادة قوة المانيا من البحر الشمالى وغرب اوربا الى الاوقيانوس وافريقية وقد قال لى احد الوزراء البريطانيين (اننا لا ننقم من المانيا توسعها الاستعمارى)

وكانت الحكومة البريطانية تنوى فى الاصل ان تجعل الاتفاق شاملا لبلاد الكونغو ولو فعلت لنلنا حق الشفعة فيها وتمكنا من دخولها اقتصاديا فرفضنا ذلك حرصا على شعور البلجيكيين فى الظاهر ويحتمل اننا اردنا الاقتصاد فى النجاح — وكانت المعاهدة فى شكلها الجديد اوفى من المعاهدة القديمة فى ماترمى اليه من الغرض المضمر منها وهو تقسيم المستعمرات البرتغالية فى آخر الامر. فقد نص فيها على احوال تخولنا حق اتخاذ التدابير لحماية مصالحنا فى المقاطعات التى عينت لنا وافرغت هذه العبارات فى قالب جعلنا الحكم فى تعيين الاحوال التى تكون جوهرية : ولما كانت البرتغال تعتمد فى كل شيء على بريطانيا العظمى فلم يكن يلزم لنا سوى ان نحسن علاقاتنا مع انكلترا لتنفيذ مقاصد الفريقين فى المستقبل برضى انكلترا

واثبت السر ادورد جراى اخلاص الحكومة البريطانية فى رغبتها فى احترام حقوقنا بان احال الينا الانكليز الذين ارادوا استثمار الاموال فى المقاطعات المعينة لنا بالاتفاق الجديد حتى قبل ان اكمل هذا الاتفاق وامضي وبابلاغ الطالبين ان أعمالهم واقعة فى منطقة نفوذنا

واكمل الاتفاق حين زيارة الملك لبرلين فى مايو ١٩١٣ . وعقد فى ذلك الحين مؤتمر فى برلين برئاسة وزير المانيا وحضرت المؤتمر وهناك عينا اموراً اخرى كنا نرغب فيها فلما عدت الى لندن تمكنت بمساعدة فون كلمان مستشار السفارة الذي كان يعمل بالاتفاق مع المستر بركر من ادخال اقتراحاتنا الجديدة فى مواد الاتفاق بحيث يتيسر للسر ادورد جراى ولي ان « نغلم » عليه في اغسطس ١٩١٣ قبل سفرى بالاجازة

ولكن نشأت صعوبات جديدة حالت دون امضائه فلم انل الاذن فى ابرامه الا بعد عام من ذلك التاريخ اي قبيل وقوع الحرب فلم يمض

وبيان ذلك ان السر ادورد جراي اشترط لامضاء العقد ان ينشر على الملاء مع

اتفاق ١٨٩٨ واتفاق ١٨٩٩ قائلا ان ليس عند انكلترا معاهدات سرية اخرى وان كتمان الاتفاقات المبرمة يناقض الاصول والقواعد المرعية فلا يسعه ان يبرم اتفاقا من غير نشره ولكنه يراعي مشيئتنا في اختيار زمان النشر وكيفيته في اثناء عام من تاريخ امضاء العقد . وكانت وزارة الخارجية الالمانية قد استاءت من نجاحي في لندن وكان فيها رجل ذو مقام ونفوذ يريد منصب السفارة في لندن لنفسه فابلغتني الوزارة ان نشر الاتفاق يضر مصالحنا في المستعمرات لان البرتغاليين يتنمون في هذه الحالة عن منحنا امتيازات اخرى

على ان بطلان هذا الاعتراض ظاهر لمن يعتبر ان البرتغاليين كانوا بحكم شدة علاقاتهم مع انكلترا عالمين بالاتفاق القديم علمهم بالاتفاقات الجديدة على ما يرجح وان نفوذ انكلترا في لشبونه يجعل الحكومة البرتغالية عاجزة تماما تجاه الاتفاق الالماني فلم يكن والحالة هـذه بد من البحث عن حجة اخرى لابطال المعاهدة فقيل ان نشر معاهدة ونزر التي ابرمت لما كان البرنس هوهنلوهي وزيرا لالمانيا بحرج صكز الهر فون بتمن هلفج لانه يكون برهانا على رياء بريطانيا العظمى وخبثها مع ان معاهدة ونزر لم تكن سوى تجديد لمعاهدة تشارلس الثاني التي ظلت مرعية على الدوام

فبينت الحكومة ان ديباجة اتفاقنا مماثلة لمعاهدة ونزر وسواها من المعاهدات في اننا نحمي حقوق ملكية البرتغال ونضمن عدم خرق حرمة املاكها فلم يجد ذلك نفعا ومع تكرار البحث مع السر ادورد جراي والاقتراحات الجديدة العديدة التي اقترحها لنشر المعاهدة فان وزارة الخارجية الالمانية اصرت على خطتها واخيرا اتفقت مع السر ادورد غوشن (السفير البريطاني في برلين) على ترك المسألة حيث كانت وكما كانت . فالمعاهدة التي انالتنا امتيازات عظيمة جدا والتي هي ثمرة عمل عام نبذت لان ابرامها يكون فوزا لي

وخاطبت المستر هركورت وزير المستعمرات في الامر وهو يتمشى في السفارة في ربيع ١٩١٤ فقال لي انه في موقف حرج لا يدري ما يفعل وان الحالة الحاضرة لا تطاق فهو يريد المحافظة على مصالحنا ولكنه لا يدري هل يجب عليه ان يسير حسب مواد المعاهدة القديمة او مواد المعاهدة الجديدة فمن الواجب الفصل في الموضوع بعد ما طال الاخذ والرد فيه وارسلت رسالة في ذلك الى حكومتي فاتاني الرد مفرغا في عبارات تغلب فيها الانفعال

على العطف وفيه ان امتنع عن التعرض لهذه المسألة

واني نادم الان لاني لم اسافر في تلك الساعة الى برلين واستقبل الى الامبراطور ولاني لم أفقه استحالة التفاهم مع ولاة الامور في برلين فكان ذلك مني خطأ فظيعا قدر أن تظهر عواقبه الوخيمة بعد ذلك باشهر على وجه محزن جدا (يشير الى وقوع الحرب)

ومع اني لم اكن في ذلك الحين حائزا الميل اكبر موظف في الامبراطورية لانه كان يحسب اني طامع بمنصبه فيجب على انصافا له أن اقول انه في اثناء مقابلتي له في آخر يونيو سنة ١٩١٤ قبل وقوع الحرب ابلغني رضاه عن امضاء المعاهدة ونشرها ومع ذلك فقد اضطررت أن اكرر الطلب قبل ان نلت الاذن في ذلك في آخر يوليو سنة ١٩١٤ ولما كانت الازمة السربية تهدد سلام أوروبا حينئذ تأجل اكمال المعاهدة فكانت واحدة من ضحايا هذه الحرب الكثيرة

معاهدة بغداد

وكنت في ذلك الوقت ايضا أفاوض الحكومة في لندن بمعونة المرفون كلمان البارع في مسألة المعاهدة المعروفة بمعاهدة بغداد وكان الغرض الحقيقي منها تقسيم آسيا الصغرى الى مناطق نفوذ مع ان هذا التعبير اجتنب كل اجتناب بسبب ما للسلطان من الحقوق. وقد كرر السر ادورد جراى قوله لي بعدم وجود اتفاقات ما بين انكلترا و بين فرنسا وروسيا على تقسيم آسيا الصغرى

وتمكنت بمفاوضة حقي باشا السفير العثماني من تسوية جميع المسائل الاقتصادية بحسب رغبة البنك الالماني. وكان اهم تساهل تساهله السر ادورد جراى معي شخصياً سماحه بمد سكة الحديد الى البصرة وكنا قد صرفنا النظر عن هذا الامر مفضلين وصل سكة الحديد بالاسكندرونة وكانت بغداد الى ذلك الحين منتهى سكة الحديد. وتم الاتفاق على تأليف لجنة دولية لتعيين شروط الملاحة في شط العرب وتم الاتفاق على ان نعطى نصيبا من اعمال ميناء البصرة وحقوقا في الملاحة في دجلة وكانت الملاحة في هذا النهر محتكرة لشركة لنش

وقضت هذه المعاهدة بان يكون العراق كله الى البصرة داخــلا في منطقة نفوذنا

(من غير اضرار بحقوق الملاحة التي للبريطانيين في نهر دجلة ولا بحقوق الري المعروفة باعمال ولككس) وكل الشقة التي تخترقها سكه حديد بغداد وسكة حديد الاناضول . واعترف في هذا الاتفاق بان شاطيء خليج العجم وسكة الحديد ما بين ازمير وايدين هما منطقة بريطانيا الاقتصادية . وسوريه هي منطقة الفرنسويين . وارمينية هي منطقة الروس . ولو ابرمت المعاهدتان ونشرتا لتم الاتفاق مع انكلترا وزال كل ريب في احتمال تعاون انكلترا والمانيا

مسألة الاسطول

كانت مسألة الاسطول ادق المسائل ولا تزال كذلك ولم ينظر في هذه المسألة نظر صحيح دائما

ان انشاء اسطول قوي في عدوة البحر الشمالي وترقي اعظم دولة حربية في قارة اوروبا الى منزلة اعظم دولة بحرية فيها ايضا من الامور التي لا يرتاح اليها الانكليز وهذا امر لا ريب فيه من كل وجه معقول فان انكلترا اضطرت ان تتسلح وتنفق النفقات الطائلة التي كانت عبئا ثقيلا على مواليها لتحتفظ بمنزلتها ولكي لا تصير معتمدة على سواها ولتصون سيادتها على البحار فلا تجوع ولكن مقام انكلترا الدولي يبيت مهددا اذا حملت سياستنا الناس على الاعتقاد بانها تؤدي الى حرب وهذا ما اوشك ان يحدث في اثناء ازمة المغرب الاقصى ومشكلة البوسنه

وكانت بريطانيا العظمى قد الفت اسطولنا ضمن الحدود التي عينت له حينئذ ولكنها لم ترتح اليه وكان هذا الاسطول احد الاسباب في تشبثها بفرنسا وروسيا مع انه لم يكن السبب الوحيد ولا اهم الاسباب ولو اقتصر الامر على الاسطول فقط لما امتشقت انكلترا الحسام كما انها ما كانت لتمتشقه بسبب تجارتنا التي زعم البعض انها ولدت الغيرة وكانت الباعث على الحرب

وقد كان رأيي في اول الامر ان التفاهم والتقرب الودي مستطاعان ولو مع وجود الاسطول اذا لم نضع بيانا بحريا جديداً وظلت سياستنا سياسة سلم محض . وقد اجتنبت

ذكر الاسطول فلم يرد ذكره على لساني ولا على لسان السر ادورد جراي في اثناء مفاوضاتنا وقد قال السر ادورد جراي في احدى جلسات مجلس الوزراء «ان السفير الالماني الحالي لم يذكر لي الاسطول قط »

وفي اثناء سفارتي في لندن اقترح المستر تشرشل وكان وزيراً للبحرية « العطلة البحرية » المعروفة واشار بامتناع الفريقين عن صنع البوارج مدة سنة وقد فعل ذلك لاسباب مالية وتلبية لرغبة حزبه المسالم على ما يرجح ولم يؤيد السر ادورد جراي هذا الاقتراح رسميا ولم يذكره لي قط ولكن المستر تشرشل كلمني عنه تكراراً

اني مقتنع بان هذا الاقتراح صدر عن اخلاص لان المواربة ليست من اخلاق الانكليز ولو استطاع المستر تشرشل ان ينقص المصروفات ويريح بلاده من كابوس التسلح الذي كان يثقل عليها لاحرز فوزا عظيما عند قومه

وكان جوابي ان الموافقة على خطته هذه صعبة لاسباب فنية وقلت له ماذا يحدث بالعمال الذين استؤجروا لهذه الغاية وماذا نفعل بالمهندسين وسائر رجال الفن فقد استقر قرارنا على بناء البحري فيتعذر تغييره ولكننا لا ننوي أن نتجاوزه. غير ان المستر تشرشل كان يعود الى الموضوع ويبين لي ان الاموال التي تنفق على التسليح الكثير يمكن انفاقها في وجوه اخرى نافعة فاجبت ان هذا الاتفاق ينفع صناعاتنا الوطنية

وقد تمكنت بمقابلاتي مع السر وليم ترل السكرتير الخاص للسر ادورد جراي من محو هذه المسألة من جدول الاعمال من غير ان أسوء احداً مع ان المسألة اشير اليها في البرلمان بعد هذا وكان غرضي من ذلك ان لا يعرض الاقتراح رسمياً علي ولكن المستر تشرشل والوزارة كانا شديدي الولع بهذا الاقتراح وعندي اننا لو وافقنا عليه وجرينا على نسبة ١٦ : ١٠ (*) في البوارج لقدمنا برهانا محسوسا على حسن نيتنا وعززنا الميل الذي شمل رجال الحكومة البريطانية الى توثيق عرى الاتفاق معنا

ولكني اعود فاقول انه كان في حكم الطاقة بلوغ الاتفاق مع وجود مسألة الاسطول

* كان اقتراح الحكومة البريطانية على المانيا ان تكون نسبة البوارج الكبيرة البريطانية الى البوارج الالمانية الكبيرة كنسبة ١٦ : ١٠ — المعرب

ومن غير وقوع «العطلة البحرية» وكنت انظر الى مهمتي من هذا الوجه وقد فزت بانفاذ خططي ولكن الحرب نشبت فهدمت كل ما بنيت

الغيرة التجارية

ان «الغيرة التجارية» التي كثر التحدث بها ناشئة عن سوء فهم لحقيقة الاحوال . نعم ان نهضة المانيا كدولة تجارية بعد حرب سنة ١٨٧٠ وفي السنين التالية لها كانت خطرا على الدوائر التجارية البريطانية التي احتكرت التجارة بمصنوعاتها ومحال الاصدار التي لها ، ولكن اتساع نطاق الاتجار البريطاني مع المانيا وهي التي كانت اكبر بلاد اوربية تستورد البضائع البريطانية — وهي حقيقة كنت اكثر من الاشارة اليها في خطبي العمومية — اوجد في البريطانيين الرغبة في المحافظة على علاقات المودة مع احسن زبائنهم (المانيا) فتقدم هذا الامر عندهم على كل اعتبار آخر

ان البريطاني رجل حقائق فهو يأخذ الامور كما هي ولا يطلب المستحيل وأشهد اني لقيت في الدوائر التجارية البريطانية أعظم مظاهر المودة الحقيقية وسعيا لترقية مصالحنا الاقتصادية المشتركة ولم يكن في تلك الدوائر من يتجه نظره بسفراء روسيا وايطاليا والنمسا حتى ولا سفير فرنسا مع مهابة شخصه وفوزه السياسي فان الجمهور البريطاني لم يكن يلفته الا السفير الالماني والسفير الاميركي

وكنت لرغبتي في الاتصال بالدوائر التجارية الكبرى اقبل دعوات غرف التجارة المتحدة وغرفة لندن و بردفورد وقد زرت نيوكاسل ولفربول ونزلت ضيفا عليهما فكنت أقابل بالتكريم والترحيب في كل مكان ودعتني منشستروجلاسجو وأدنبرج وكنت أنوي الذهاب اليها

وقد لامني الذين لايفهمون الاحوال البريطانية ولا يدركون أهمية المآدب العمومية والذين ساءهم نجاحي وقالوا ان خطبي احدثت ضرراً. أما انا فاعتقد عكس ذلك وارى ان ظهوري في هذه الحفلات وتنويهي بمصالحنا التجارية المشتركة ساعدا مساعدة كبيرة في تحسين العلاقات علاوة على ان رفض هذه الدعوات يكون مخالفا لمقتضى الذوق

ودليلا على سوء الآداب

وكنت أقابل بأعظم ترحيب ومودة ومعاونة قلبية فى سائر الدوائر وفى البلاط الملكى وعند أعيان البلاد ورجال الحكومة .

البلاط الملكي وأعيان البلاد

ان الملك (جورج) ليس نابغة ولكنه رجل بسيط القلب طيب السريرة صحيح الاحكام وقد أظهر حسن نيته نحونا .وكان صادق الرغبة فى تسهيل مهمتى . ومع ان الدستور البريطانى يقيد سلطة الملك تقييداً كثيراً فان للملك بمقامه نفوذاً عظيماً فى الهيئة الاجتماعية والحكومة. فالعرش رأس الصرح الاجتماعي عندهم والجمهور يتابعه وأعيان البلاد يهتمون بالسياسة وقد كان لهم على الدوام نصيب كبير فيها وهم ممثلون فى مجلس الاعيان. ومجلس النواب والوزارة طبعاً

وقد قوبلنا في لندن بالترحيب الكبير وتبارى الحزبان السياسيان الكبيران فى التلطف بنا . ومن الخطأ ان يحط المرء من قيمة العلاقات الاجتماعية فى انكلترا لما هو معروف من شدة العلاقة بين السياسة والطبقات العليا وليس فى الدنيا بلاد لمقدرة السفير الاجتماعية شأن فيها كانكلترا فان القرى وحسن الضيافة أهم من التعمق فى العلوم والمعارف والعالم الذى لايحسن آداب المعاشرة المطلوبة في لندن والذى هو قليل المال لا يصيب شيئا من النفوذ ولو تفجر العلم منه

ان البريطاني يمقت الثقيل والدساس والمتغطرس ويحب «الرجل الطيب»

السر ادورد جراي

كان نفوذ السر ادورد جراى في جميع الامور الخاصة بالسياسة الاجنبية يكاد يكون مطلقا من كل قيد. نعم انه كان يقول في الامور المهمة « يجب علي ان أعرض هذا على مجلس الوزراء قبل الجزم فيه » ولكن المجلس المذكور كان يوافق دائما على ارائه ولم يكن أحد ينازعه سلطته . وكان واقفا علي جميع المسائل المهمة بطول خبرته البرلمانية ودقة نظره وقد تقلد منصبه فى وزارة الخارجية نحو عشر سنوات حتى الان .

والسير ادوردجراى سبط بيت كريم عريق فى انكلترا الشمالية . ولما دخل السرادورد مضمار السياسة انضم الى القسم الايسر من حزبه وأظهر عطفه على الاشتراكيين ودعاة السلم . وقد يصح ان يدعي اشتراكيا باعلى معانى هذه اللفظة . وهو يطبق النظرية على عيشته فيعيش عيشة بسيطة خالية من الكلفة مع أنه على جانب عظيم من الثروة. والفخفخة والابهـة ليستا من طبعه ففى لندن يقيم فى بيت صغير ولا يولم من الولائم سوى المأدبة الرسمية التى يؤدبها فى وزارة الخارجية يوم عيد مولد الملك فاذا دعا ضيوفا الى الطعام فالى عشاء بسيط ويجتنب الحفلات الكبيرة والمآدب

وهو يقضى آخر الاسبوع فى الريف كزملائه ولكنه لايقيم مع الجماعات الكبيرة من افراد الطبقة المالية بل يغلب ان ينفرد بنفسه فى كوخه فى نيوفوريست حيث يكثر من المشي لدرس طبائع الطيور وعاداتها لانه شديد الولع بالطبيعة وعالم من علماء الطيور و يذهب فى بعض الاحيان الي املاكه فى الشمال حيث يطعم الطيور من شبابيكه ويربى انواعا شتى من طير الماء

وله شغف عظيم بالذهاب الى آجام نورفوك ليرقب سير طيور المـاء التى تبنى عشاشها هناك

وكان فى شبابه من اكبر لاعبى الكريكت والراكت اما الآن فان احب الرياضة اليه صيد السمك فى انهار اسكتلاندا مع صديقه اللورد جلنكونر صهر المستر اسكويث . كان السر ادورد يقول : « اقضى السنة وانا انتظار حلول فصل صيد السمك » وقد ألف كتابا عن هذا الصيد

وكنا نصرف آخر الاسبوع ذات مرة معه فى قصر اللورد جلنكونر بقرب سلسبري فجاء من كوخه راكباً دراجة (بيسكل) والكوخ يبعد عن القصر ثلاثين ميلا وعاد اليه راكباً الدراجة

وقد حاز ببساطته وصدقه احترام الجميع حتى خصومه وهؤلاء الخصوم كانوا ينازعونه فى الامور الداخلية لا فى الامور الخارجية . وهو يمقت الكذب والدسائس

وكان شديد التعلق بقرينته فلم يكونا يفترقان وقد ماتت بسقوطها من مركبة كانت

تسوق خيلها . ولا يخفى ان واحداً من أشقائه قتله أسد

وهو يفضل من الشعراء وردسورث ويحفظ فيها جانبا كبيراً من شعره

على أن سكينته البريطانية لا ينقصها حب الفكاهة وقد كان يتغدى معناذات يوم وكان أولادنا معنا على المائدة فسمعهم يتكلمون بالالمانية فقال « ما أبرع هؤلاء الاولاد فانهم يجيدون الالمانية أيما اجادة » وأخذ يضحك من نكتته هذه

هـذا وصف صحيح للرجل الذى لقب « بجراي الكذاب » واتهم بانه المحرض على هذه الحرب العامة

المستر اسكويث

أما المستر اسكويث فيختلف اختلافا عظيما عن السر ادورد جراي فهو يحب رغد الحياة والعيشة الطيبة ولع بالاجتماعات البهيجة والطعام الطيب وقرينته تشاطره حبه المسرة وقد كان قبلا محامياً كبير الكسب من صناعته وقضى عدة سنوات نائبا فى البرلمان ثم صار وزيراً فى وزارة غلادستن وهو كصديقه جراي من انصار السلم . ولميله الى التفاهم مع ألمانيا كان ينظر فى جميع المسائل برزانة مقرونة بالبشر وثقة من تمرس بالاعمال وألف الاشغال وزادت صحته الجيدة واعصابه المتينة كثرة الرياضة البدنية بلعب الجولف

وقد تعلمت كريماته فى ألمانيا وهن يجدن التكلم بالالمانية فاتصلت حبال المودة بيننا وبينه وبيننا وبين عائلته فى وقت قصير ونزلنا ضيوفا عليه فى بيته الصغير فى الريف على ضفة نهر التايمز

ولم يكن يتعرض لامور السياسة الاجنبية الا نادراً فمتى عرضت امور على جانب عظيم من الشأن وحينئذ كان حكمه فيها فصل الخطاب طبعا . وكانت مسز اسكويت تأتينا فى أيام يوليو العصيبة لتحذرنا واخيراً غلب عليها الجزع بسبب سير الامور . ولما زرت المستر اسكويث يوم ٢ اغسطس لاحظت لآخر مرة على التزام الحياد انه شديد الحزن مع انه كان مستكمل الرزانة والوقار وكانت الدموع تسيل على خديه

سلوك وزارة الخارجية الالمانية

يعجز القلم عن وصف الغيظ الذى شعر به بعضهم من جراء نجاحي في لندن والمنزلة التى بلغتها فيها فى وقت وجيز فكانوا يبتكرون تعليمات مزعجة لزيادة مشقة عملي ويكتمون عني أهم الامور فلا يبلغونني سوى تقارير باردة عديمة الاهمية . أما التقارير «الخفية» عن امور لا يمكنني الوقوف عليها من غير تجسس و بذل الاموال اللازمة فهذه لم يكن لي سبيل اليها . وكانت وزارة الخارجية الالمانية تعلم امورا على اعظم جانب من الاهمية فتكتمها عني مددا طويلة

اذا وقعت الحرب

ايقنت بعيد وصولى الى لنـدن ان بريطانيا العظمى لا تهاجمنا ولا تؤيد دولة اخرى تهاجمنا ولكنها انكلترا تحمي الفرنسويين على كل حال . واعربت لحكومتى عن هذا الرأي فى تقارير متكررة عززتها بالبرهان الدقيق وشددت فى توجيه النظر اليها فلم تصدق قولى مع ان رفض اللورد هلداين التسليم بعبارة الحياد وسلوك انكلترا فى أثناء الازمة المغربية كانا دليلين واضحين

وكنت اقول على الدوام انه اذا وقعت الحرب بين دول اوربا فان انكلترا الدولة التجارية تخسر خسارة عظيمة فلهذا تفرغ قصارى جهدها لمنع وقوع الحرب ولكنها لا تسلم ابدا باضعاف فرنسا او افنائها لضرورة المحافظة على توازن القوة فى اوروبا ومنع تفوق المانيا فى القوة وكان اللورد هلداين قد ابلغني هذا كله بعيد وصولى واعرب جميع كبار الرجال البريطانيين لي عن مثله

الازمة السربية

ذهبت فى آخر يونيو (١٩١٤) الى كيـال باسم الامبراطور وكانت جامعة اكسفورد قد منحتني قبل ذلك ببضعة اسابيع الرتبة الاكرامية لدكتور فى الشريعة المدنية وهي لم تمنح لسفير الماني بعد فون بنصن . وفيما نحن فى البارجة «ميتيور» نعي الارشدوق فاسف جلالة الامبراطور لان مساعيه التى بذلها لاستمالة الارشدوق الى رأيه ذهبت سدى

ولما كنت غير واقف من حكومتي على اتجاه الاراء وسير الحوادث في فينا لم اعلق اهمية عظيمة على مقتل الارشدوق وعلى ما رأيته بعد ذلك ان اعيان النمسا اظهروا من الارتياح اكثر مما اظهروا من سائر العواطف

ولما بلغت برلين قابلت وزير الامبراطورية وقلت له انى ارى علاقاتنا الخارجيــة على خير ما يرام فقد تحسنت علاقاتنا مع انكلترا عما كانت وزمام حكومة فرنسا في يد وزارة من انصار السلم

ولكن الهرفون يتمن هاقنج لم يشاطرني هذا التفاؤل وتبرم من تسلح روسيا فحاولت ان اهدىء روعه وقلت أن ليس لروسيا مصلحة في مهاجمتنا وان انكلترا وفرنسا لا تؤيدانها في هذه المهاجمة لانهما تريدان السلم . ثم قابلت الدكتور زمرمان وكان قائما باعمال وزارة الخارجية بالنيابة عن الهر ياهو (وزير الخارجية الالمانية حينئذ) فاخبرني ان روسيا عازمة على تجنيد ٩٠٠٠٠٠ جندى جديد . وكان كلامه يشف عن امتعاض شديد من روسيا ويقول « اننا نجدها معترضة لنا فى طريقنا فى كل مكان » وان هنالك مشاكل تتعلق بالسياسة الاقتصادية . ولكنه لم يخبرنى طبعاً ان الجنرال فون ملتكي كان يلح في طلب الحرب غير اني علمت ان فون تشرتشكي (السفير الالمانى فى فينا) وبخ لانه ارسل يقول انه اشار على حكومة النمسا بالاعتدال في معاملة سربيا

ولما عدت من سيلبزيا الى لندن لم امكث في برلين سوى بضع ساعات سمعت في خلالها النمسا مصممة على اتخاذ التدابير ضد سربيا انقضي على حالة لا تحتمل

وانى شديد الاسف لاني لم اقدر هذا الخبر حق قدره حينئذ ولم يخطر ببالي انه يؤدي الي أمر ما . وظننت ان المسألة تسوى بسهولة ولو توعدت روسيا

اما الان فانى نادم اشد ندم لاني لم ابق فى برلين واجاهر حالا باني لا اعاون في خطة من هذا الضرب

وعلمت بعد ذلك ان المؤتمر الفاصل الذى عقد في بتسدام يوم ٥ يوليو بحث فى السؤال المرسل من فينا وان كبار اعضائه وافقوا على ماطلبت النمسا موافقة تامة وزادوا على ذلك قولهم ان لا ضرر يخشى اذا اسفر ذلك عن وقوع حرب مع روسيا . هذا على كل حال

ما جاء فى البرتوكول النمسوي الذى تلقاه الكونت منسدورف فى لندن و بعد ذلك بقليل سافر المرفون ياهو الى فينا لمشاورة الكونت برختولد فى جميع هذه الامور

وتلقيت فى تلك الاثناء تعليمات بان اقنع الصحافة البريطانية بان تسلك سبيل المودة اذا ضربت النمسا حركة « سربيا الكبرى » الضربة القاضية وابذل نفوذى الشخصي فى منع الرأى العام فى انكلترا من الظهور بمظهر العداء للنمسا . ولكني تذكرت سلوك انكلترا فى اثناء ازمة ضم البوسنه والهرسك الى النمسا وما اظهر الشعب البريطانى من العطف على سربيا وحقوقها على البوسنه وكذلك تأييد بريطانيا العظمى للحركات القومية فى ايام اللورد بيرون وغريبلدى فترجح عندى ان البريطانيين لا يؤيدون ما تنويه النمسا من تسيير حملة تأديبية على قتلة الامير والفيننى مضطرا الي ارسال تحذير معجل الى حكومتى ولكنى نبهتها ايضا الى الخطة كلها وقلت انها خطرة مغامرة محفوفة بالخطر ونصحت لها ان تشير على النمسا بالتزام الاعتدال لاني ما كنت اعتقد بامكان حصر الحرب ضمن حدود معينة

فرد المرفون ياهو علي قائلا ان روسيا غير مستعدة والمرجح ان نسمع شيئا من الجعجعة ولكن كلما شددنا فى تأييد النمسا اذعنت روسيا اما الآن فالنمسا تتهمنا بالوهن فلا نجرأ على التخلي عنها . ثم ان الرأي العام فى روسيا يزداد عداوة للالمان فعلينا ان نخاطر

وعلمت بعدئذ ان هذا الرأي بني علي تقارير ارسلها الكونت بورتالس (السفير الالماني حينئذ في بتروغراد) فقد ارسل يقول ان روسيا لا تتحرك مهما حدث وفهمت ان هذا هو الذى حدا بحكومتنا الى حض الكونت برختولد على ابداء منتهى الحزم فلما تبين ذلك لى رجوت ان أجد سبيلا الى الخلاص بوساطة بريطانيا العظمى لعلمى ان نفوذ السر ادورد العظيم فى بتروغراد يمكن استخدامه فى سبيل السلم فاستعنت بعلاقاتى الودية معه وكلفته سراً ان يشير على روسيا بالاعتدال اذا طلبت النمسا الترضي من سربيا كما كان يرجح

والتزمت الصحف الانكليزية السكينة فى اول الامر وكان سلوكها وديا نحو النمسا لان الجميع استهجنوا مقتل الامير ولكن الاصوات اخذت ترتفع قائلة انه ان تكن الجناية تستحق العقاب الشديد فان التوسل بها لقضاء اوطار سياسية غير سائغ وحثت الصحف الانكليزية النمسا بقوة على الاعتدال

فلما نشر بلاغ النمسا النهائي اجمعت الصحف البريطانية — ماعدا الستندرد — على استهجانه وادرك العالم كله — ماعدا برلين وفينا — ان هذا البلاغ يؤدي الى الحرب العامة وكان الاسطول البريطاني قد اجتمع لعرض بحري فلم يسرح

فاتجه همي في اول الامر الى حمل سربيا على ارسال جواب مفرغ في قالب التساهل على قدر الطاقة لان سلوك الحكومة الروسية لم يبق مجالا للريب في شدة الموقف

فلبت سربيا اشارة بريطانيا العظمى وقبل المسيو باسنش (رئيس وزارة سربيا) جميع المطالب ما عدا اثنين اعرب عن رغبته في المفاوضة فيها . ولو كانت روسيا وانكلترا تريدان الحرب لما جاءتنا الكانت اشارة منهما الى حكومة سربيا كافية. ولما ردت سربيا على ذلك البلاغ الذي لم يسبق له مثيل

وقرأ السير ادورد جراي رد سربيا بحضوري و بين لي تساهل الحكومة السربية فبحثنا في ما اقترحه للتوسط وهو يشمل صيغة عبارة تكون مقبولة عند الفريقين لجلاء المطلبين الذين تقدم ذكرهما. وكان اقتراحه يقضي بتأليف لجنة من المسيو كمبون (السفير الفرنسوي في لندن) والمركيز امبريالي (السفير الايطالي) ومني تجتمع برئاسته : ولو نفذ هذا الاقتراح لسهل علينا وضع عبارة تشمل المطلبين اللذين هما موضوع الخلاف وتكون مقبولة عند الفريقين . كان هذان الطلبان خاصين باشتراك الموظفين النمسويين في التحقيق الذي يدور في بلغراد . ولو توافر حسن النية لسوي كل شيء في جلسة او جلستين ولادى قبول الاقتراح البريطاني الى تخفيف الشدة وزاد علاقاتنا بانكلترا تحسينا . فلهذه الاعتبارات ايدت الاقتراح بقوة لان عدم تأييده يؤدي الى حرب عامة لا نربح بها شيئا وقد نخسر كل شيء فذهب سعيي ادراج الرياح لان حكومتنا زعمت ان ذلك يحط من قدر النمسا وكرامتها وان المانيا لا تروم التعرض لشئون سربيا وانها تركت الحكم في هذه الامور لحليفتنا وامرتني حكومتي ان اسعى « لحصر الحرب ضمن دائرة معينة »

وغني عن البيان ان اشارة واحدة من برلين كانت تكفي لحمل الكونت برختولد على القناعة بفوز سياسي وقبول جواب سربيا ولكن هذه الاشارة لم تعط بل ان حكومتنا ظلت تحض على الحرب. ولو جرت على الخطة الاخرى لفازت فوزا باهرا . وبعد ما رفضنا

اقتراح السر ادورد جراي طلب منا ان نعرض اقتراحا منا فاصررنا على الحرب ولم اتمكن من حمل حكومتي على ارسال رد غير قولها ان النمسا اظهرت تساهلا عظيما بعدم طلب الاستيلاء على املاك سربية

فقال لي السر ادورد وقوله صواب ان في طاقة النمسا ان تجعل سربيا في حكم التابع لها من غير ان تأخذ شيئا من املاكها وان روسيا ترى في هذا اذلالا لها فلا تسمح به

واخذ الاعتقاد يزداد باننا نروم الحرب على كل حال اذ لم يكن في الاستطاعة تأويل ما كنا بغير ذلك في مسألة لا تتعلق بنا مباشرة فان طلبات المسيو سازنوف وعهوده القاطعة والتلغرافات التي ارسلها القيصر وافرغها في قالب التواضع واقتراحات السر ادورد جراي وتحذير المركيز سان جليانو والسنيور بولاني ومشورتي التي ارسلتها على جناح السرعة — كل هذا ضاع سدى وظلت برلين مصرة على قرارها بوجوب «ذبح سربيا»

وكنت كلما زدت الحاحاً زادوا نفورا لكي لا يتاح لي الفوز بمنع الحرب بالاتحاد مع السر ادورد جراي

واخيرا أي في ٢٩ يوليو استقر قرار السر ادورد على ان يفوه بتحذيره المشهور فاجبته انني كنت على الدوام اخبر حكومتي انه اذا وقعت الحرب مع فرنسا فعلينا ان نحسب حساب انكلترا. وقد قال لي السر ادورد غير مرة « اذا وقعت هذه الحرب فانها تكون اكبر نكبة نكب العالم بها »

وبعد ذلك اخذت الحوادث تسير سراعا وكان الكونت برختولد حتى ذلك الحين لا بساً جلد النمر باشارة برلين ولكنه رأى حينئذ ان يخفف من غلوائه فمال الى الاذعان. اما نحن فقابلنا تعبئة روسيا بالبلاغ النهائي واعلان الحرب عليها بعد ماقضت حكومتها اسبوعا في المفاوضات والانتظار

اعلان انكلترا للحرب

وكان السر ادورد جراي لا يزال يبحث عن وسائل جديدة لمنع وقوع النكبة فزارني السر وليم ترل صباح يوم ١ اغسطس وابلغني ان رئيسه لا يزال عاقدا الامال بتدبير حل

المشكلة . ويسألنا هل نلتزم الحياد اذا لزمته فرنسا، وقد فهمت منه حينئذ ان المطلوب منا هو التزام الحياد مع فرنسا ولكنه اراد ان نلتزم الحياد التام — اي نحو روسيا ايضا . هذه حكاية « سوء التفاهم » الذي ذاع امره . فان السر ادورد جراى كان قد سبق فدعاني الى زيارته بعد الظهر واذ كان جالسا في مجلس الوزراء خاطبني بالتلفون بعد ما عجل السر وليم تول في العودة اليه . اما بعد الظهر فلم يتكلم السر ادورد الا عن حياد البلجيك وامكان وقوف المانيا وفرنسا مسلحتين الواحدة تجاه الاخرى من غير وقوع حرب بينهما

فالذى جرى اذاً لم يكن اقتراحا بل كان سؤالا خاليا من كل ضمان لان موعد اجتماعي بالسر ادورد جراى كان بعد ذلك تماما كما قلت قبلا ولكن حكومة برلين لم تنتظر هذا الاجتماع بل اتخذت الخبر المتقدم اساسا لتدابير بعيدة الغور وعقب ذلك كتاب المسيو بوانكاره وكتاب المستر بونارلو وتلغراف الملك البرت فاقتنع المترددون من وزراء بريطانيا العظمى ما عدا ثلاثة استعفوا من مناصبهم

وقد كنت احسب الى آخر ساعة ان انكلترا تقف وقفة المنتظر ولم يكن السفير الفرنسوى واثقا بشيء على الاطلاق كما بلغني من مصدر خصوصي . وزد على ذلك ان الملك في اول اغسطس رد على رئيس الجمهورية الفرنسوية ردا مبهما . ولكن التلغراف الذى اتاني من برلين منبئا بقرب الخطر من وقوع الحرب ذكر انكلترا بين الخصوم فتبين منه ان حكومة برلين كانت تتوقع الحرب مع انكلترا

وقبل سفري من انكلترا استقبلني السر ادورد جراى في بيته يوم ٥ اغسطس وقد زرته بدعوة منه فوجدته متأثرا جدا فذكر لي انه مستعد للتوسط على الدوام وقال « اننا لا نروم ان نسحق المانيا » . فهذا الحديث الخصوصي نشر على الملأ لسوء الحظ فاضاع المر بتمن هانفج بنشرة اخرى فرصة سنحت لنا للمحافظة على السلم مع انكلترا

وكانت التدابير التي اتخذت لسفري مفعمة بالوقار والهدوء وكان الملك قد سبق فارسل ياوره السر ا . بنسني ليعرب لي عن اسفه لسفري ويقول انه لا يستطيع ان يقابلني بنفسه وكتبت الي البرنسس لويز تقول ان البيت الملكي كله حزين لسفرنا وزارتنا مسز اسكويث وسواها من اصدقائنا لتوديعنا

واقلنا قطـار خاص الى هرتش حيث اصطف قرقول شرف تكريما لي ووصلت كالك مسافر . وكذا انتهت سفارتي في لندن فافسد علي فيها « بغدر » سياستنا لا بغدر بريطانيا العظمى

وجاء الكونت منسدرف (سفير النمسا) الى المحطة في لندن لتوديعي وكان البشر يلوح على وجهه فافهمني انه قد يبقى في لندن وانه قال للانكليز ان المانيا رامت الحرب وليس النمسا

نظرة الى الماضى

اكتب هذه السطور والقى نظرة على ما مضى منـذ عامين فارى اني ادركت بعد فوات الزمن انه لم يكن لي مكان في نظام قام عدة سنوات على العرف والتقاليد ولا يرضيه من السفراء والموظفين سوى الذين يرفعون التقارير بما يروم رؤساؤهم و ينفر من انتفاء التعصب ومن الاستقلال في الرأي . فالعاجز المقصر ممدوح محترم والمفلح الناجح ممقوت يوقع القلق

وكنت قد اقلعت عن معارضتي لسياستنا المعروفة بسياسة المحالفة الثلاثية لانها سياسة جنون بعد ما تحققت ان هذه المعارضة سدى وان تحـذيري يعزى الى كرهي للنمسا وتشبثي برأي لا احيـد عنه . ولـكن السياسة ليست حركات بهلوانيـة ولا العابا اخرى ولـكنها اهم اعمال الدول . وليس في السياسة حب او كره بل هي قائمـة على مصلحة الشعب والبلاد غير ان السياسة الالمانية التى تقوم على النمسويين والمجر والترك تسفر حتما عن النزاع مع روسيا وتؤدى الى البوار

ومع كل ماجرى من الخطأ السابق فقد كان في الطاقة تلافي هذا الخطأ في شهر يونيو سنة ١٩١٤ فاننا كنا قد اتفقنا مع انكلترا

فكان علينا ان نرسل الى بتروغراد سفيرا على جانب من الكفاءة السياسية ونقنع روسيا باننا لا نبغى بسط سيادتنا على الدردنيل والبسفور ولا نروم خنق سربيا وقد قال لنا المسيو سازنوف « تخلوا عن النمسا نتخل عن فرنسا » وقال المسيو كيون فون ياهو « انكم لستم مضطرين أن تقتفوا خطوات النمسا الى كل مكان »

لم نكن مفتقرين الى الحرب ولا الى المحالفات وان كنا في حاجة الى معاهدات تضمن لنا ولسوانا السلامة وتصون تقدمنا الاقتصادي الذي بات عديم النظير في تاريخ العالم. ولو خلصت روسيا من المشاكل في الغرب لاتجهت انظارها مرة اخرى الى الشرق ولعادت المناظرة بين انكلترا وروسيا من تلقاء نفسها ومن غير سعي منا وكذلك المنافسة بين روسيا واليابان.

وكان في طاقتنا ان ننظر في مسألة انقاص السلاح وعدم الاكتراث كل النمسا وتهددها ولو فعلنا لصارت النمسا تابعة للامبراطورية الالمانية من غير محالفة بينهم ومن دون ان نخطب ودها لان هذا يؤدي أخيرا الى حرب لتحرير بولندا والقضاء على سربيا وهو عكس ما تقتضيه مصلحة المانيا

لقد اضطررت وأنا في لندن ان أؤيد بسياسة كنت أعلم بطلانها فجررت بذلك النقمة على رأسي

عودتي الى المانيا

ولما وصلت الى برلين أدركت انهم يريدون ان يجعلوني مسؤولا عن النكبة التي جرتها حكومتي على عكس رأيي ومع تحذيري لها فاشيع عمداً في الدوائر الرسمية اني سمحت للسر ادورد جراي ان يخدعني اذ لو كان السر ادورد يريد اجتناب الحرب لما عبأت روسيا جيشها. أما الكونت برتالس (السفير الالماني في بتروغراد) الذي كانت الحكومة تعتمد على تقاريره فكان الواجب حمايته ولا سيما بسبب قرابته لبعض الكبراء. وكانوا يقولون عنه انه تصرف تصرفا باهراً فصاروا يكيلون له المدح جزافا ويلقون اللوم علي احمالا

قال لي هذا السياسي (بورتالس) بعد ما أقام ثمانية أعوام في بتروغراد « ماذا يهم روسيا من أمر سربيا. ان كل ماجرى حيلة بريطانية خفيت عليك ». وقيل لي في وزارة الخارجية ان الحرب كانت ستقع على كل حال سنة ١٩١٦ ولكن روسيا تكون قد استعدت حينئذ فخير لنا أن نحارب الان

على من تقع التبعة

ان الامور التالية تتضح من جميع المطبوعات الرسميـة ولا يدحضها ما جاء في الكتاب الالماني الابيض وهو يشهد علينا بقلة ما فيه من المواد والمعلومات وما أغفل ذكره من الوقائع

١ ـ اننا نشطنا النمسا على مهاجمة سربيا مع ان مصالح ألمانيا لم تكن مهددة بخطر ما مع اننا كنـا عالمين أن ذلك قد يؤدي الى اضرام نار حرب عامة وأما اطلاعنا على صيغة بلاغ النمسا النهائي الى سربيا أو عدم اطلاعنا عليه فلا أهمية له على الاطلاق

٢ ـ لما جاهرت روسيا بين ٢٣ يوليو و٣٠ يوليو سنة ١٩١٤ مجاهرة صريحة بانها لا تصبر على مهاجمـة سربيا رفضنا ما اقترحته بريطانيا العظمى من التوسط مع ان سربيا قبلت جميع المطالب الواردة في البلاغ النهائي تقريباً بتشديد روسيا وبريطانيا العظمى عليهـا ومع ان الاتفاق على وجهي الخلاف الباقيين كان ممكنا ومع ان النمسا كانت مستعدة لقبول جواب سربيا

٣ ـ في ٣٠ يوليو لما أرادت النمسا أن تلين ارسلنا بلاغا نهائيا الى بطرسبرج لان روسيا عبأت جيشها فقط مع انها لم تهاجم النمسا

وفي يوم ٣١ يوليو اعلنا الحرب على روسيا مع ان القيصر تعهد بشرفه ان لا يأمر عسكريا واحداً بالزحف ما دامت المفاوضات دائرة — فقضينا بذلك عمداً على كل احتمال بتسوية الامور تسوية سلمية

فاذا اعتبرنا هذه الحقائق التي لا يستطيع أحد انكارها لا نستغرب ان كل العالم المتمدن في خارج ألمانيا يلقي كل التبعة في هذه الحرب العامة على عاتقنا

رأي الاعداء

أفلا يحق لاعدائنا أن يقولوا انهم لا يستريحون ولا يسكتون حتى يقضوا على نظام هو خطر دائم على جيراننا . ألا يحق لهم أن يحسبوا انهم بعد سنوات قليلة يضطرون الى تقلد السلاح اذ يرون الجيوش تكتسح ولاياتهم ويرون الخراب ضاربا اطنابه في مدنهم وقراهم . أفلم يصدق الذين قالوا ان روح ترتشكي وبرناردي هو الروح الذي تسلط على

الشعب الالماني وهو الروح الذي اله الحرب لذاتها ولم ينفر منها و يعدها شراً وان الحاكم فينا هو بقية من فرسان جاهلية أوربا وأصحاب الاطيان وحزب الحرب وان هؤلاء هم الذين يضعون لنا المبادىء ويعينون قيمة الاشياء بدلا من أن يضعها المهذبون العقلاء وان حب المبارزة التي شغف بها طلبة المدارس عندنا لا يزال راسخا في افئـدة الذين استلموا زمام امور الشعب . ألم تظهر حادثة تسابرن (في الالزاس) والمناقشات البرلمانية التي دارت عليها البلدان الاجنبية قيمة حقوق الفرد وحريته في عيوننا اذا تنافرت مع أمور السلطة العسكرية

كان كرامب المؤرخ العاقل من المعجبين بالمانيا وقد وصف نزعة الالمان بابيات نظمها يوفوريون ومعناها « أتحلمون بالسلام فليحلم به من يشاء — انما الحرب هي النداء الذي يجمع الشمل . وقرار هذا النداء الانتصار »

ان الروح العسكرى في الاصل نوع من التربية للشعب واداة في يد السلطة العسكرية متى استبد الحكم المطلق بالشؤون في مملكة عسكرية وجعل الامور فيها تسير في مجرى لاتسمح به دمقراطية بعيدة عن تأثير فئة عسكرية من الاعيان

هذا مايظنه اعداؤنا وهذا مايجب أن يظنوه متى رأوا ان الاحياء في ألمانيا لا يزالون يحكمهم الموتى كما قال « فردريك نتشه » مع كل مابلغته ألمانيا من التقدم الصناعي ومن النظام الاجتماعي ان أعداءنا سيحققون الغرض الاكبر من اغراضهم في هذه الحرب وهو جعل ألمانيا

بلاداً دمقراطية

لقد فزنا تماما باحراز ماكان يجب علينا اجتنابه وهو قطع علاقاتنا مع روسيا وانكلترا

مستقبلنا

ظهر بعد حرب عامين اننا لا نرجو أن ننتصر انتصاراً فاصلا على الروس والانكليز والفرنسويين والايطاليين والرومانيين والاميركيين أو أن نتعبهم حتى يكفوا عن القتال ولكننا نستطيع أن نعقد الصلح بالتسوية اذا جلونا عن البلدان التي نحتلها والتي اذا احتفظنا بها كانت عبئاً علينا وعلة ضعف لنا وخطراً علينا ينذر بحروب مقبلة . فلهـذه الاسباب

يجب اجتناب كل ما من شأنه أن يلقي العثرات والصعاب في سبيل أحزاب الاعداء التي يمكن أن نستميلها الى فكرة الصلح بالتسوية أعني بها الراديكاليين البريطانيين وحزب الرجعة الروسي وهذا وحده يكفي لاستهجان مشروع المسألة البولونية والاعتداء على حقوق البلجيك واعدام الرعايا البريطانيين. دع عنك حرب الغواصات الحالية من التعقل والصواب

تقولون « ان مستقبلنا على سطح البحر » آمنا وصدقنا. ولكن معنى هذا ان مستقبلنا ليس في بولندا والبلجيك وفرنسا وصربيا

ان السياسة المعروفة بسياسة المحالفة الثلاثية ليست سوي عود الى الماضي وتنكيب عن المستقبل وابتعاد عن بسط النفوذ والسيادة والسير في مضمار سياسة العالم. وأما مشروع « مثل أوربا » أي اوربا الوسطى فمشروع من مشروعات القرون الوسطى

وأما سكة حديد برلين — بغداد فطريق غير نافذ وليست هي السكة المؤدية الى فجاج الارض — الى المستقبل المطلق — الى المهمة التي ألقيت على عاتق الامة الالمانية

انتهى

